

تطور بناء الخطاب الحجاجي عند المتكلمين وعلماء الدين في الثقافة العربية الإسلامية

أ. ابتسام صغيور
جامعة الجزائر (02)

الملخص:

هذه الدراسة تتوخى تتبع تطور معالم الدرس الحجاجي في الثقافة العربية الإسلامية من خلال مباحث علمي الكلام والتفسير وعلم الأصول باعتبارها الجذور الأولى التي غدت هذا العلم ومنها انتقل إلى علم البلاغة.

Résumé :

Cette étude pour but de suivre le développement des points essentiels de la leçon argumentative dans la culture arabo-islamique à travers les thèmes de scolastique et l'interprétation et la science d'origine, ces dernières considèrent les premières racines qui sont sustente cette science, qui est transfère après à la rétorque

تمهيد:

كان للحجاج حضورا بارزا في الثقافة العربية والإسلامية على وجه الخصوص، والمتتبع لهذا الشأن يجد أنّ له امتدادات متشعبة فاقت بكثير ما عرف عند اليونان. ولئن أفاد هؤلاء من الثقافة اليونانية بعد حركة الترجمة في العصر العباسي ولا سيما ترجمة كتب أرسطو إلا أن الحجاج كبحث في الفكر العربي الإسلامي لم ينتقل إلينا مباشرة من الثقافة اليونانية كما هي الحال بالنسبة لبعض المباحث الفكرية الأخرى كالمنطق والفلسفة مثلا، وإنّا كان الحجاج في الأصل طبيعة بشرية وفطرة جبل عليها الإنسان واكتسب بعض آلياتها البدائية اكتسابا وذلك للطبيعة الاجتماعية التي تقوم على مبدأ التواصل وهذا ما يميّز البشر عامة لأن الثقافات والحضارات تشترك في عمومها " في اللجوء إلى استعمال الأساليب اللغوية لبناء أدلة الإقناع وتكوين الحجة المناسبة في هذه العملية التواصلية "(1) وفي الوقت الذي نشأ فيه فنّ القول في اليونان من المنازعات العقارية والمرافعات القضائية المبنية على أسس ديمقراطية، كان فنّ القول عند العرب في جاهليتهم المرتبة التي لا يعلى عليها أبدا وبذا اقترنت نشأة الحجاج بنشأة الشعر والخطابة العربية معا، وقد صوّر القرآن براعة العرب وشدة مراسهم في الخصام والجدل في مواضع عديدة منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَسِنَّةٍ حَدَادٍ﴾ (2) وقال: ﴿وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (3) ويقول أيضا: ﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (4) فمعجزة الرسالة المحمدية وهي القرآن كانت تحديا لهم في صميم ما برعوه وأعظم ما حذقوه من البيان وكانت هذه الدعوة المحمدية " تدل في وضوح على ما أوتوه من اللسان والفصاحة والقدرة على حوك الكلام كما تدل على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعاني وتبين ما يجري فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير. "(5) فالعرب أمة عالمة بأحوال الكلام وفنونه وتصاريفه ومعانيه وطبعهم في ذلك كان سليقة.

ثم جاء الإسلام وحملت الدعوة إلى الدين الجديد استراتيجية إقناع قوية برزت في القرآن الكريم وفي أقوال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وذلك لما تطلبت الرسالة من حجج قوية لإقناع قريش باعتناق الدين الجديد والاهتداء إلى دين الله تعالى، فنجد الآيات القرآنية محملة بأساليب حجاجية داحضة تمتد صلاحيتها عبر كل العصور وعلى اختلاف البشر، ذلك أنّها رسالة موجهة للبشرية جمعاء ممّا تنوع الزمان أو المكان يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ (6)

وتوسّع رقعة الإسلام وانتشار الفتوحات قامت الخطابة بدور اجتماعي هام حيث عدّت وسيلة هامة لتحقيق الإقناع وتغيير المفاهيم والمعتقدات وكانت من أهم عوامل التصرّ أثناء الفتوحات ومثال ذلك خطبة طارق ابن زياد المشهورة التي حثّ فيها جنده على الاستقرار ومواصلة الجهاد بعد أن حوصروا وكاد اليأس يبلغ بهم مبلغه، وفعلا كان لهذه الخطبة دورها المجدي في تحفيز الجند وإقناعهم على المواصلة وعدم اليأس أو الاستسلام. وعلى كل حال فإن التراث العربي يزخر بمثل تلك الخطب التي تؤكّد ما تحدّث عنه.

وبالافتتاح الثقافي والمعرفي الذي شهدته الثقافة العربية والإسلامية في أوج ازدهارها تواصل تجسيد استراتيجية الإقناع في كثير من السياقات وتبلورت في كثير من العلوم كالفقه وأصوله والتفسير والفلسفة وعلم الكلام والمناظرات وعلوم اللغة وقد مثلت هذه الاستراتيجية بمختلف آلياتها السبيل الأمثل لإبراز مكونات هذه العلوم والدفاع عنها ومحاولة إحلالها في الموضوع الذي تستحقه⁽⁷⁾ إذ يمثل الإقناع والتواصل الصفة المشتركة بين جميع تلك العلوم وفي الحقيقة هما قاسمان مشتركان بين العلوم في كل الثقافات فـ " العملية التواصلية بين البشر بجميع أشكالها التعريفية والتنافسية الناتجة عن التدافع الفكري أو المذهبي أو الصراع بين المصالح أو الخلاف حول السلطة، قاسم مشترك بين تلك الثقافات وأداة منهجية لها أدبياتها وحدودها الأخلاقية واللغوية [التي] لا يمكن الاستغناء عنها في الحوار والتناظر بل يجبي الالتزام بها، ولذا عدّ الحجاج علما من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنها لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال"⁽⁸⁾.

وعلى الرغم من أن مبحث الحجاج قد تبدى لنا على عدة مستويات وعلى عدة ملامح في اللغة والبلاغة العربية إلا أنه لا يمكن أن ننكر أن هذا المبحث في البلاغة قد أفاد بصفة أساسية من علم الكلام بل إن عددا غير يسير من البلاغيين كانوا متكلمين وقد انعكست سمات ومظاهر هذا الاتجاه الفكري في مؤلفاتهم البلاغية.

لقد أثرنا في هذا المقال التطرق إلى معالم الدرس الحجاجي في علم الكلام وبعض العلوم الأخرى كالتفسير وعلم الأصول وذلك لصلتها الوثيقة بالحجاج والجدل بل إن الحجاج يأتي أحيانا بمعنى المذهب الكلامي على نحو ما سنرى، كما أن هنالك مبررا آخر وهو الطبيعة الموسوعية للعلوم وتداخلها عند العلماء العرب فجّل المتكلمين كانوا خطباء وبلاغيين وأدباء وفقهاء ورياضيين وغير ذلك كما هي الحال عند الجاحظ أو الخوارزمي مثلا وغيرهم كثير.

الحجاج عند المتكلمين:

تعود الجذور الأولى لظهور هذا العلم إلى مخلفات الفتنة الكبرى التي عصفت بالمسلمين بعد مقتل الخليفة عثمان ابن عفان رضي الله عنه واستيلاء الأمويين على الخلافة والحكم الأمر الذي تولدت عنه انقسامات في صفوف المسلمين وظهور تيارات معادية حملت بعدا فكريا فيما بعد كالحوارج والشيعية والمرجئة، كل هؤلاء خاضوا في مسائل الإمامة والحكم واصطبغوا بالصبغة الدينية والعقائدية وقد مثّلوا صراعا فكريا حادّا زيادة على الصراع السياسي بين الحوارج والأمويين الذين مثّل المرجئة لسان فكرهم ونظرا لتطور الظروف الاجتماعية والسياسية فإن هذه التيارات تطورت وشرعت وأصابتها انقسامات عديدة مما ولّد لنا ظهور فرق أخرى ناتجة عنها كالجبرية والقدرية أو أخرى مثل ظهورها رد فعل جاء منفصلا عنها كالمعتزلة مثلا وكان للجدل الحاصل بينها شأن لإنضاج هذه المذاهب.

وإن كان الصراع الفكري لدى الأوائل جاء استجابة لظروف اجتماعية وسياسية واكتسى طابعا دينيا في بدايته، إلا أنه تطور فيما بعد مع المحافظة على صبغته الدينية وكان للحجاج شأن في إنضاج تلك المذاهب المتناحرة فيما بينها، ويشير نصر حامد أبوزيد إلى أن المؤرخين يعدون كلا من أبي الهذيل العلاف تـ (235 هـ) وتلميذه إبراهيم بن سيار النظام تـ (230 هـ) بداية التحول من المنهج الديني الخالص إلى الطريقة الجدلية التي من أولوياتها الانتصار على الخصم عن طريق إيراد مقدمات شائعة مشهورة لا يستطيع الخصم المنازعة فيها⁽⁹⁾ وكانت المعتزلة - كما سيأتي - من أشهر الفرق الكلامية التي نصبت نفسها لجدال أصحاب الفرق الأخرى والدفاع عن الاسلام مع اتخاذهم موقفا محايدا في السياسة وقد برعوا في ذلك أيما براعة في الخطابة والبلاغة حتى يذكر أنهم كانوا " فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء"⁽¹⁰⁾

وإذا أردنا أن البحث عن تعريف لعلم الكلام فإننا نجد أن ابن خلدون تـ (808 هـ) يذكر أنه " علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة"⁽¹¹⁾ فهو علم يرادف الحجاج أو هو الحجاج نفسه عند ابن خلدون والثابت في الأمر هو الصبغة الدينية التي يكتسبها هذا العلم وتؤكد هذه النظرة الأخيرة حديثا يعرفه محمود صبحي على أنه " علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها"⁽¹²⁾ فالواضح هنا وإن كان التحول إلى الطريقة الجدلية قائما أن موضوعه بقي مرتبطا بالعقائد الدينية كالتوحيد والنبوة والإيمان والكفر وغير ذلك فالهدف الأساسي لعلم الكلام هو: " نصرته ما جاء به الدين من العقائد والأحكام وتغيير كل ما خالفه بالأدلة العقلية"⁽¹³⁾

ومهما يكن من أمر فقد ارتبط علم الكلام بالجدل والحاجة حتى صار لصيقاً به ورديفاً له فعلى الرغم من أن الحجاج والمجادلة مثلاً الوسيلة الأبرز لدى المتكلمين إلا أنه كثيراً ما اقترن لفظ المتكلم بلفظ الجدل أو المناظر وعليه فعلم الكلام هو حجاج ومن الممكن أن نعد علم الكلام مرحلة من مراحل إنضاج الحجاج في البيئة العربية الإسلامية. فلقد علا شأن المتكلمين حتى أنهم برزوا كطائفة موازية لطائفة المعلمين من اللغويين والنحاة آنذاك، وكانت لهم عناية بمسائل البيان والبلاغة لاتصالها بما كانوا يقومون به من الخطابة والمناظرة، وقد شكلوا منذ أواخر القرن الأول الهجري فرقا تتجادل في نظرياتها العقدية من إرجاء وجبر واختيار وملئوا مساجد العراق في الكوفة والبصرة وبغداد وأصبحت محاوراتهم ومناظراتهم شغل الناس الشاغل إذ صاروا يتحدثون عن من ظفر وعن من هزم مبدئين إعجابهم بهذا المناظر أو ذاك ويتحرون عن أسباب الظفر والهزيمة، فيعودون إلى النظر في حجج الخصمين وفي لغتها ومخارج حروفها وإشاراتهما وهيأتهما⁽¹⁴⁾.

لقد كان من الضروري إذا أن يمتاز المتكلم بمواصفات دقيقة كالفصاحة وطلاقة اللسان، ومعرفة طرق التأثير على السامعين بالبيان ومخاطبة الوجدان زد على ذلك حسن الهيئة ورابطة الجأش والثبات ويضيف شوقي ضيف أنه "كان منهم من يحسن الخطابة والمناظرة والجدل ومنهم من لا يوفيهما جميعاً حقوقهما، فكثرت الحديث في قوة الحجج وفي وضوح العبارة ودقتها وفي جمهرة الصوت وفي ملامح المتكلم وفي ملائمته بين كلامه والمستمعين وكان يعنى كل صاحب نخلة فيهم أن يجمع من حوله الشباب وأن لا ينصرفوا إلى خصومه، فأخذوا يقفونهم على النقص في الحجج والأدلة والنقص في الأداء والبيان كما أخذوا يقفونهم وعلى أسرار المهارة في الإقناع والظفر بالخصوم وأسرار البلاغة في القول"⁽¹⁵⁾، وهم في ذلك كانوا أشبه بالسفسطائيين غير أنهم لم يجادلوا لأجل الجدل كما فعل هؤلاء في اليونان ولم يستخدموا خدعاً كلامية وألفاظاً منمقة من أجل التبيكيت وإنما كانوا غالباً يسعون للانتصار لمذاهبهم وإثبات صحة مقولاتهم واستنباطاتهم الدينية لدرح خصومهم من المذاهب الأخرى وكل ذلك كان في إطار واع ودراية دقيقة سواء من طرفهم أو من طرف الخصوم، وهذا ما لم يكن عند السفسطائيين. ومن الضروري قبل أن نتجاوز الحديث عن الحجاج في علم الكلام أن نخرج قليلاً عن فرقة المعتزلة لما لهم من فضل في إذكاء علم الكلام والمحادثة.

المعتزلة وأثرها في علمي الكلام والمجادلة:

كما ذكرنا سابقاً اتخذت هذه الفرقة من الجدل والمناظرة وسيلة اعتمدوا عليها في مباحثهم ونشر مبادئهم، وقد بهروا الناس بذلك حينئذ واستقطبواهم على اختلاف فئاتهم ويعود لهم الفضل الأول في تأسيس علم الكلام والمجادلة والمناظرات وعلمي البلاغة والبيان وقد تبدى أثرهم بوضوح في تلك المجالات وفنون النثر والشعر بصفة عامة.

كما أنهم كانوا من أولى الفرق التي أخذت من الفلسفة اليونانية وأفادت منها وكان ذلك بأن "نظمت الفلسفة - اليونانية - عقولهم تنظيماً منطقياً دقيقاً وأن جعلتهم يحسنون استنباط الآراء وخصائص الأشياء، كما جعلتهم يقتدرون على إيراد الحجج والبراهين وتشعيب المعاني وتضييعها"⁽¹⁶⁾ وفتحوا بذلك المجال واسعاً أمام غيرهم للتعرف على الفلسفة اليونانية والأخذ منها بأن كانوا أول من أدخل الفلسفة اليونانية إلى الثقافة العربية الإسلامية.

أما عن ظهور الاعتزال فقد كان في البصرة مع بداية القرن الثاني للهجرة تقريباً بزعامة "واصل بن عطاء"، وقد اختلف الدارسون في نشأة هذه الفرقة وتسميتها اختلافاً كبيراً تبعاً لاختلاف المصادر التي اعتمدوا عليها في دراساتهم لهذا المذهب وتسميته، لكن الأشهر ما جاء في كتاب "الملل والنحل" من أن رجلاً دخل على الحسن البصري سائلاً إياه: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا فئة يكفرون أصحاب الكبراء... فتفكر الحسن في ذلك، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً، ولا كافر مطلقاً، بل هو في منزلة بين المنزلتين: لا مؤمن ولا كافر. ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن. فقال الحسن: اعتزل عنا واصل. فسمي هو وأصحابه معتزلة. وفي ذات السياق يخلص الدكتور عبد الحكيم بلع في كتابه بعد إيراد العديد من الروايات في هذا الشأن قديمها وحديثها إلى نتيجة مفادها: "أنا نستطيع أن نستخلص أن ظهور المعتزلة - كرواد لحركة فكرية - كان مترتباً بصفة مباشرة على موقف واصل وصحبه في مشكلة مرتكب الكبيرة"⁽¹⁷⁾.

ومنذ ظهورها ظلت هذه الحركة تحظى باهتمام متزايد في الأوساط العلمية والدينية بين مؤيد ومعارض محدثة بذلك بلبله فكرية قلبت كل الموازين وفرضت اتجاهها جديداً في العلم عرف بـ "علم الكلام والمناظرات" أو "علم المجادلات" وكان لهذه العلوم أثرها الواضح في

توجيه العقول والأفكار وشيوع المجادلات بمقارعة الحجة بالحجة والرأي بالرأي وكانوا يبذلون لذلك جل جهدهم وبراعتهم. وما ساعد على ظهور وشيوع هذه الفرقة هو تضافر العديدة من العوامل والمسببات التي ساهمت بشكل أو بآخر في ظهور المنحى الاعتزالي وانتشاره، منها الديني والاجتماعي والسياسي وغير ذلك من العوامل التي جعلت من فئة لها نزعتها الخاصة وخلفت أثرها واضحا في التاريخ الإسلامي.

أما عن أهداف المعتزلة ومبادئهم فقد جند المعتزلة أنفسهم للدفاع عن الدين الإسلامي وحمايته من الانحراف عن مبادئه الأساسية نتيجة توسع الرقعة الإسلامية ودخول أجناس كثيرة من ديانات مختلفة إلى البلاد العربية وكذلك الدفاع عن الدين الإسلامي ضد خصومه الذين فلسفوا العقائد وأخذوا يزعمون الشك والشبه في المجتمع الإسلامي، فما كان من المعتزلة إلا أن واجهوا هؤلاء الخصوم بأسلحتهم وتصدوا لهم بأن درسوا الفلسفة اليونانية دراسة عميقة استعانوا بها في مباحثهم وتقرير مبادئهم، كما درسوا أيضا علوم الدين وأصوله دراسة شاملة للكشف عن جوهره وأهدافه وبالتالي التمكن من عرضه عرضا يليق به بل إنه تعلم الفلسفة وأصول الدين أصبح شرطا أساسيا حتى يكون المتكلم متكلمًا، يقول الجاحظ: "ولا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام متمكنا في الصناعة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن في كلام الفلسفة" (18).

كما درسوا اللغة والبيان وبحثوا في ذلك كثيرا حتى أن علم البلاغة نشأ على أيديهم وصاروا كما جاء على لسان بشر ابن المعتمر في البيان والتبيين: "فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء"

وتتحدد مبادئ المعتزلة الذين سمو أنفسهم أهل العدل والتوحيد، في خمسة مبادئ أساسية لا يقوم الاعتزال إلا بها ويذكرها أبو الحسين الخياط قائلا: "وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كملت فيه هذه الخصال فهو معتزلي" (19)، وهذه الأصول الخمسة هي الأساس الذي تمحور حوله نتاجهم الفكري والأدبي بشكل عام، وإن كما لا نريد التفصيل في هذا الأمر حتى لا يحدد البحث عن مساره الحقيقي، إلا أننا سنقدم بعض الشرح البسيط لكل منها حتى تتضح لنا رؤيتهم التي كان لها أثر واضح في بعض المؤلفات الأدبية خاصة وأن عددا غير قليل منهم هم أدباء وشعراء تبدى أثر هذا الفكر في نتاجهم الأدبي والشعري لا سيما ما كان عند الجاحظ وهو أب البلاغة العربية:

1 - التوحيد: ويقصد به تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة المخلوقات، وقد أثار هذا المفهوم وتطبيقاته عندهم العديد من المسائل من أشهرها البحث في صفات الله ومسألة خلق القرآن وغير ذلك.

2 - العدل: وقد اختلف فهم المعتزلة عن فهم عامة المسلمين لمفهوم "العدل الإلهي" وما يترتب عنه فقد فلسفوا الأمر وتعمقوا في شرح وتفسير مدلوله، ولما يتفرع عنه من مسائل شائكة، وقضايا كبرى شرعت عن بحثهم في عدل الله وما يقتضيه ومن ذلك مسألة القضاء والقدر أو الجبر والاختيار وا يترتب عن ذلك من التكليف ثم الثواب والعقاب.

3 - الوعد والوعيد: يشرحه الشهرستاني بقوله: "واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا عن طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضل معنى آخر وراء الثواب وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار، وسموا هذا النمط وعدا ووعيدا، وهذا الأصل مترتب على العدل ... فالعدل الإلهي يقتضي أن يجازي كل إنسان بعمله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، لأنهم قالوا: إن الأمر بالطاعات كان لغاية، فمن أطاع فقد حقق الغاية من الأمر، وبذلك يستحق الثواب، وهذا هو الوعد وكذلك النهي عن المعاصي إنما هو لغاية، فمن عصى ولم يمتثل ويجتنب ما نهى عنه، لم يحقق الغاية من النهي، فهو مستحق للعقاب، وهذا هو الوعيد" (20). وترتب على هذا المبدأ عندهم بأن أنكروا "الشفاعة" وأولوا النصوص الواردة بشأنها لأنها تتنافى مع مبدأ الوعد والوعيد.

4 - المنزلة بين المنزلتين: وهو المبدأ الذي ارتبط بظهور المعتزلة كحركة فكرية كما سبق وذكرنا في مسألة مرتكب الكبيرة، هل هو مؤمن أم كافر، فأجاب واصل بن عطاء بأنه ليس بمؤمن مطلقا ولا هو بكافر مطلقا، فهو في منزلة بين المنزلتين أي بين الكفر والإيمان.

5 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهومن أخطر المبادئ التي أخذ بها المعتزلة لأنه وصل إلى حد استعمال السيف في فرض المبادئ خاصة عندما اعتنق المأمون وأمرأه بني العباس للاعتزال وأدى إلى محنة كبيرة في بلاد المسلمين، ومن الغريب أن يكون هذا من المعتزلة الذين عرفوا بحرية الرأي والفكر وإكبار شأن العقل.

وعلى الرغم من حماسهم في الدفاع عن الدين الذي أدى بهم إلى الغلو في كثير من الأحيان وإعطاء الحق لأنفسهم في فرض مبادئهم على غيرهم والتعصب لمذهبهم، إلا أنه لا يمكن بأية حال من الأحوال الطعن أو الشك في إخلاصهم خصوصاً ما تعلق بالرعيل الأول منهم فقد بذلوا جهوداً جبارة وتفتقوا بأرقى أنواع المعرفة في الثقافة والفلسفة والدين لخدمة أهدافهم فقد برعوا في الإقناع أيما براعة، فناظروا وحاججوا وأحفوا الخصوم بالأدلة العقلية والمنطقية السليمة التي لا تقبل الرد متخذين من اللغة وفنون النثر والبلاغة سلاحاً فعالاً ومهراً سحر العقول والألباب وكانوا الأعلى صوتاً في مجالس المتكلمين، ويعود لهم " الفضل الأكبر في إيجاد فن المناظرات، ووضع أسسه وقواعده، وفيه انتضحت ملامح ثقافتهم وخصائصهم ومعلم مذهبهم، وكانوا رواداً لهذا الطريق الذي لم يكن معروفاً من قبلهم في النثر العربي ... وقد كان لزاماً عليهم أن يتسلحوا بمختلف أسلحة خصومهم ومنها الفلسفة خاصة كما كان لزاماً عليهم أن يدرسوا مبادئ الفرق المختلفة وبخاصة أولئك الذين انحرفوا بمبادئهم، بحيث صارت تنتج نتائج خطيرة على آخرتهم ودنياهم، كالجبرية والمجسمة والروافض، كما جادلوا المحافظين الذين ضيقوا مجال العقل، وكبلوه بالأغلال، وتمسكوا بحرفية النصوص مع القصور في فهم بعضها أحياناً، أو فهمها على وجه خاص، كما رأوا أن من واجبهم مقاومة اللامبالاة والسلبية عند المرجئة" (21).

وعلى كل حال، ينسب الفضل إلى المتكلمين والمعتزلة خاصة في إيجاد فن الجدل والمناظرة لأن الأساليب العربية التقليدية اتسمت بالبساطة وكانت أقرب إلى الخطائية منها إلى الجدل والمناظرة " فلما ظهر المعتزلة وجدوا أن الجدل والمناظرة أنسب الأساليب، وأقرب الطرق للوصول إلى أهدافهم في نشر مبادئهم وإقناع طالب الحق، وإغرام الخصم وإلزامه الحجة بالدليل والبرهان، وهم بذلك واضعوا قواعد علم البحث والمناظرة وأصوله التي ينبغي على المتناظرين مراعاتها" (22).

ومهما يكن من أمر فقد شكل علم الكلام مزيجاً معرفياً حمل في طياته العديد من ملامح الدين الإسلامي والثقافة العربية والفلسفة اليونانية وثقافات أخرى من الفارسية والرومية والمسيحية وحتى اليهودية لكن ركيزته الأساسية كانت الإسلام وكان لهم دور كبير في إثبات العقائد ودفع الشبهات التي مست الدين بالأدلة العقلية، حسب قواعد المنطق موفقين في ذلك بين الأدلة العقلية والأدلة النقلية، فلا يمكن بأية حال نفي ما للمتكلمين من دور في إذكاء وإضجاج الدرسين الحجاجي والمساهمة في ذلك خير الإسهام وأن ميدان الحجاج قد خدم كلا من علم الكلام وأصول الفقه على حد سواء خاصة .

الحجاج عند المفسرين وعلماء الأصول:

أ - عند المفسرين:

انصب اهتمام المفسرين على النص القرآني بدراسة أساليبه ودققوا في تراكيبه النحوية وأبينته الصرفية وبحثوا في أقسام المعاني وأقسامها وأنواع الخطابات والتحري حول أسباب النزول والسياقات المختلفة لذلك، وبم أن الخطاب القرآني قائم على أقطاب التواصل الثلاثة: المتكلم والخطاب والمتلقي فإنه من الطبيعي أن تشمل دلالات هذا الخطاب تلك العناصر الثلاثة، وقد عمل المفسرون على البحث في ذلك وتعرضوا إلى دراسة البيان عن طريق البحث في اختيار الحجج والبراهين المبينة لذلك النص، وعملوا على تبسيط شرح النص القرآني عن طريق التعرض إلى بيان آلية الإقناع في الخطاب القرآني التي بدورها تحمل المتلقي على الإذعان والتقييد بما ورد فيه .

ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما فعله كل من بدر الدين الزركشي تـ (794 هـ) في برهانه وما فعله السيوطي تـ (911 هـ) في الإتيان فكلاهما تعرض لموضوع الحجاج في تفسيره بعده علماً من علوم القرآن، وقد خص الزركشي باباً مطولاً تحت عنوان " في معرفه جدله" (17) وعقد السيوطي لهذا التخصص في كتابه فصلاً وسمه بـ " جدل القرآن " وأشار في بداية حديثه إلى أن القرآن الكريم : " قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة إلا وكتاب الله قد نطق به " (18) وكذلك فعل الزركشي في مقدمة حديثه، كما ذكر السيوطي أن ابن أبي الأصبع تـ (654 هـ) قد عد الحجاج مذهباً كلامياً وهومن بلاغة القرآن وأنه مشحون به يظهر ذلك من خلال تعريفه له على أنه " احتجاج المتكلم على ما يريد إثباته بحجة تقطع المعاند له فيه على طريقة أرباب الكلام، ومنه نوع منطقي تستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة " (23) لكم ما يلاحظ لدى كل من الزركشي والسيوطي أنهما يراوحيان في

الاستعمال بين لفظي الجدل والحجاج ويقبان أحدهما مقام الآخر على وجه الترادف بل تعدم لفظة الجدل باستثناء العنوان خاصة لدى الزركشي وورد بدلا من ذلك لفظ "الحجاج" ومشتقاته .

غير أن السيوطي يضيف أن المقصود من الحجاج " المذهب الكلامي " ويستدل بكلام ابن أبي الأصبع الذي سبق وتكلمنا عنه ويعقد بعد ذلك فصلا ذكر فيه الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل وفصل في شرحها وهي: السبر والتقسيم والتسليم والإسجال على الخصم والقول بالموجب والانتقال في الاستدلال والمناقضة التي هي تعليق أمر مستحيل إشارة إلى استحالة وقوعه بالإضافة إلى مجازة الخصم⁽²⁰⁾. وقد فصل في ذلك كله مستشهدا بآي القرآن الكريم وما يمكن الإشارة إليه في الأخير أن الحجاج لدى السيوطي وغيره كثير من القدامى بما هي الجدل ويعادله بل يتعدى ذلك إلى المذهب الكلامي، على أن هذا العلم كما يروونه علم دقيق بل هو الصناعة نفسها.

ب - الحجاج عند علماء الأصول:

يعرف علم الأصول على أنه: " النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتأليف "⁽²⁴⁾ وأصول هذه الأدلة مأخوذة من القرآن ثم من السنة المبينة له أساسا وتلحق بها أدلة أخرى من بعد وهي الإجماع والقياس وغير ذلك. وقد عرف الحجاج عند علماء الأصول أوج ازدهاره في القرن الخامس الهجري، حيث شاعت المناظرات والمساجلات الفقهية وظهرت كتب ومؤلفات في هذا الفن منها:

- المنهاج في ترتيب الحجاج، لأبي الوليد الباجي ت (474 هـ)

- الإحكام في أصول الأحكام، والتقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامة والأمثلة الفقهية لابن حزم الظاهري ت (456 هـ)

- الوصول إلى علم الأصول، لأبي إسحاق الشيرازي، ت (476 هـ)

- الجدل على طريقة الفقهاء، والواضح في أصول الفقه لابن عقيل ت (513 هـ)

غير أن الكتاب الأبرز والأهم من بين هذه الكتب هو كتاب " المنهاج في ترتيب الحجاج " لأبي الوليد الباجي، حيث يكاد يكون هذا الكتاب الأهم على الإطلاق، وذلك لما يحتويه من قيمة علمية ذاتية تتضح من خلال فصول الكتاب، وأخرى تتمظهر في ريادة هذا الكتاب وسبقه فهو يمثل تقريبا الباكورة في فن الجدل في الأندلس وأول مصنف عربي يظهر بعنوان " الحجاج " على الرغم من أنه هو وكل علماء عصره ومن سبقوه تقريبا يستخدمون الجدل والحجاج على وجه الترادف، والباجي في مقدمة كتابه هذا يعده كتابا في الجدل وذلك أثناء حديثه عن السبب الذي دعاه إلى تأليف الكتاب فيقول أنه: " لما رأيت بعض أهل عصرنا عن سبل المناظرة ناكين، وعن سنن المجادلة عادلين خائضين فيما لم يبلغهم علمه ولم يحصل لهم فهمه، مرتبكين ارتباك الطالب لأمر لا يدري تحقيقه والقاصد إلى نهج لا يهتدي طريقته، أزمعت أن على أن أجمع كتابا في الجدل يشتمل على جمل أبوابه وفروعه وأقسامه وضروب أسئلته وأنواع أجوبته "⁽²⁵⁾. فالواضح إذا أن السبب الذي دعا الباجي إلى تأليف الكتاب هو ما لاحظته من ابتعاد فقهاء ومناظري عصره عن آداب الجدل وحيادهم عن السبل العلمية لذلك، وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على شيوع هذا العلم واكتساحه لكل المجالس العلمية آنذاك وقد بلغت شدة انتشاره أن صار الكل يجادل ويخاصم حتى حادوا عن المنهج السليم لأدب الحوار والمناظرة.

لقد مثل كتاب الباجي هذا إذا إسهما ما يحسب له وذلك أنه جاء بمثابة المصنف المفصل والمنظم لتقنيات الحاجة وأساليبها وفق غايات تعليمية منهجة فنجد الباجي يحجج الحجاج بأنه: تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه وهو في هذا أقرب ما يكون إلى المناظرة والملاحظ هنا أن الباجي قصر الحجاج على طرفين في حين أنه من الممكن أن تتعدد أطرافه لأكثر من ذلك.

ويستمر الحديث بعد ذلك عن الأهمية التي يكتسبها هذا العلم من حيث أنه: "من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنًا، لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من الخال ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتضحت محجة، ولا علم الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقيم "⁽²³⁾. ويواصل الباجي حديثه بإفراجه بابا في ذكر ما يتأدب به المناظر مراعيًا في ذلك الخصائص الجسمية والسلوكية والنفسية والخلقية ودون إهمال للمتلقّي فعلى المناظر إذا⁽²⁶⁾:

- أن يتحلى بتقوى الله ويسأله المعونة والتوفيق لنفسه على طلب الحق وتوفيقه لإدراكه، على أن يكون مقصده من ذلك طلب الحق لا المباهاة والمفاخرة حتى لا يذهب مقصوده ويكتسب إثمًا ووزره.

- أن يتوفر في جلوسه ولا يترج من مكانه وألا يعث بيده ولحيته حفاظا على وقاره كما أن عليه أن يعتدل في صوته فلا يكثر الصياح حتى يشق على نفسه، ولا يخفي صوته فينسب منه إلى ضعف المنة وألا يشغف بكلامه ولا يعجب بجذاله.

- أن يقبل على خصمه مستمعا إلى كلامه وألا يثق بقوته وضعف خصمه لألا يقضي به ذلك إلى الضعف والاقطاع ويصبر له حتى يفرغ من كلامه ويحتجب إظهار العجب من كلام خصمه والتشنع عليه في جذاله لأن ذلك من سيات الضعفاء.

- ألا يتكلم إلا على المقصود من كلامه ولا يستدل بما لم يمعن في تأمله ولا تصحيحه ويجهد في الاختصار لأن الزلل مقرون فيه بالإكثار.

- ألا يناظر في حال الجوع والعطش ولا في حال الخوف والغضب ولا في حال يتغير فيها عن طبعه لأن ذلك كله يشغل الخاطر ويقطع المادة إلى غير ذلك من الصفات التي يقول عنها أنها " متى أخذ المناظر نفسه بما وصفناه وتأدب بما ذكرناه، انتفع بجذله وبورك في نظره إن شاء الله تعالى "(27). فالقصد من الجدل إذا هو تحقيق المنفعة مع حفظ التأدب ثم يشرع الباجي بضبط دقيق للمصطلحات العلمية مع بيان وجوه الاستدلال وأنواع وطرقه، كل ذلك في سياق ممنهج يعكس مدى جديته وموضوعيته بطريقة تثير الإعجاب، وهذا البناء المحكم والمنهج الذي يحمل طابعا شموليا في موضوع دراسته هوما جعله يتفوق على غيره من كتب الجدل.

ومن الجدير بالذكر أن ابن حزم الأندلسي ت (456 هـ) كان من أهم المتبحرين في صنوف المعرفة الدينية بما فيها الفقه وأصوله والجدل فيه، وقد زخرت كتاباته بالخطابات الحجاجية التي جعلته يلتقى حضوة كبيرة لدى سلاطين ميورقة بالأندلس، وذلك لما عرف عنه من علمه وأنه كان لا يهدأ من السجال والحجاج مشتهرا بجذله في الجدل حتى لقب بالمفكر الحجاجي، ولم يكن ليحراً أحد من العلماء على التحدث بعلمه أو المجادلة بحضوره، إلى أن ناظره الباجي وكانت له غلبة عليه فكان الوحيد الذي تمكن من ابن حزم تمكنا نهائيا لم يترك معه من مجال إلا مغادرة ميورقة.

وذهب ابن خلدون في مقدمته أثناء حديثه عن علم أصول الفقه إلى الإقرار بأن الآلية المثلى للإقناع تتمثل في استخدام الحجج، وانتهى به الحديث إلى اعتبار الجدل بأنه: " معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم ؛ فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج [...] احتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا، وكيف يكون مخصوصا منقطعا، ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت لخصمه الكلام والاستدلال . ولذلك قيل فيه أنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب، في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه، [سواء] كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره "(28).

خاتمة:

اقترن لفظ الحجاج غالبا بالجدل في الثقافة العربية الإسلامية كما عني في كثير من الأحيان المذهب الكلامي، وقد خدم علم الحجاج أو الجدل كلا من علمي الكلام وأصول الفقه على حد سواء حيث ساهمت تلك المناظرات والمقابلات في تطوير الأساليب الحجاجية التي انتهجها هؤلاء العلماء للانتصار لمذاهبهم وآرائهم، ومن الجدير بالذكر أنه بالرغم من حدة تلك المناظرات وقوتها إلا أنها لم تكن قط من أجل المغالطة والتبكيك كما كان الحال عند السفسطانيين وإنما كانت دائما بهدف تنوير العقول وإثبات صحة الاعتقادات، هذا ويرجع الفضل لهذه العلوم في انتقال الدرس الحجاجي إلى البلاغة العربية وفي تطوير آليات لبحث سبل الإقناع الخطاب .

الهوامش والإحالات:

- 1- علي الإدريسي، في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام، ضمن كتاب التحاج طبعته ومجالاته ووظائفه، إشراف حمو النقاري، ص 81.
- 2 - سورة الأحزاب، الآية 19.
- 3- سورة البقرة، الآية 204.
- 4 - سورة الزخرف، الآية : 58 .
- 5 - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، ط 9، القاهرة، 1995. ص 9.
- 6 - سورة سبأ، الآية 28.
- 7 - ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، بنغازي، ليبيا، 2004. ص 447.
- 8 - علي الإدريسي، في تأسيس الحجاج لدى مفكري الإسلام، ص 82.

- 9 - ينظر: نصر حامد أبوزيد، الاتجاه العقلي في التفسير دراسة في قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة، المركز الثقافي العربي، ط 4، الدار البيضاء، المغرب، 1998. ص 45.
- 10 - أبو عمر عثمان بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين ج 1 ص 139.
- 11 - عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د تح، د ط، بيروت لبنان، 2007. ص 467.
- 12 - أحمد محمود صبيحي، في علم الكلام، ج 1، (المعتزلة) مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية، ط 4، مصر، د ت، ص 2.
- 13 - نفسه، ص 3.
- 14 - ينظر: شوقي ضيف البلاغة تطور وتاريخ، ص 33، 34.
- 15 - نفسه، ص 33.
- 16 - محمد أبو الفضل بدر الدين بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث، القاهرة، 1427 هـ - 2006 م، ص 486.
- 17 - جلال الدين السيوطي، الإقتان في علوم القرآن، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط 1، دمشق، سوريا، 1429 هـ - 2008 م، ص 679.
- 18 - نفسه، ص 18.
- 19 - ينظر، جلال الدين السيوطي الإقتان في علوم القرآن، ص 681 وما بعدها.
- 20 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص 462.
- 21 - أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، تح: عبد المجيد تركي، ص 7.
- 23 - نفسه، ص 8.
- 24 - ينظر، نفسه، ص 9، 10 وما بعدها.
- 25 - أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجاج، ص 10.
- 26 - ينظر: نفسه، مقدمة المحقق، ص 11.
- 27 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص 466.
- 28 - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص 319.